قضية العالم بين القدم والحدوث عند الفلاسفة والمتكلمين

دكتور/عبد الفتاح محمد عبد الكريم
مدرس بقسم العقيدة والفلسفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــد :

ان المتأمل المنصف يدرك لأول وهلة صعوبة هــذه القضية وتعقدها الأمر الذي جعلها تحتل مكانا هاما وخطيرا فى تفكير الفلاسفة والمتكلمين واشعلت نار الخصومة بينهم زمانا طويلا • ولأجـل هــذا تردد بعض من كبار الفلاسفة وعمالقة المفكرين حول الادلاء برأى فى هــذه القضية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، الفيلسوف الكبير « ابن طفيل » حيث يقول : متحــدثا عن حى بن يقظان : « فلمــا تبين له انه كله كشخص واحــد فى الحقيقة ، واتحــدت عنده أجزاؤه الكثيرة بنوع من النظر الذى اتحــدت به الأجسام التى فى عالم الكون والفساد • ففكر فى العالم بجملته • هــل شىء حــدث بعــد أن لم يكن • ؟ وخرج الى الوجود بعــد العــدم ؟ أو هــو أمر كان موجودا فيما سلف ولم يسبقه العــدم بوجه فى الوجوه فتشكك فى ذلك ولم يترجــح عنده أحــد الحكمين على الآخر »(١) •

وهــذا هو « ابن رشد » الذى ذهب الى أن القــول بالقــدم أو بالحــدوث ليس أحــدهما على ظاهر الشرع ، بل بتأويل يقــول ابن رشد : « ان ظاهر الشرع اذا تصفح ظهر من الآيات الواردة فى الأنباء عن ايجاد العالم أن صورته محــدثة بالحقيقة ، وان نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين ــ أعنى غير منقطع • وذلك ان قوله تعالى : **« وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على المــاء »(٢) •**

يقتضى بظاهرة أن وجودا قبل هــذا الوجود وهو العرش والماء

(١) ابن طفيل : حى بن يقظان ص ٩٦ •

(٢) سورة هــود الآية ٧ •

وزمانا قبل هـذا الزمان أعني المقترن بصورة هـذا الوجـود الذي هو عـدد حركات الفلك • وقوله تعالى : « **يوم تبـدل الأرض غير الأرض والسموات** »(١) يقتضي أيضا بظاهرة أن وجودا ثابت بعـد هـا الوجود •••• والمتكلمون ليسو في قولهم أيضا في العالم على ظاهر الشرع ، بل متأولون فانه ليس في الشرع أن الله كان موجودا مع العدم المحض ، ولا يوجـد هـذا فيه نص أبدا ، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هـذه الآيات أن الاجماع انعقد عليه ؟ »(٢) •

قـول ابن رشد هـذا صريح في غموض قضية قـدم العالم أو حـدوثه وأنه نظرا لدقة المسألة وصعوبتها على الافهام ، فلا يمكن القول : بالقـدم أو بالحـدوث الا بتأويل لظاهر الشرع هـذا بالاضافة الى أن بعض المفكرين حاولوا جاهـدين التماس العـذر للمختلفين حول هـذه القضية نخص منهم الامام « محمد عبده » حيث يقول : « واعلم أني وان كنت قـد برهنت على حـدوث العالم ، وحققت الحق فيـه على حسب ما أدى اليه فكري ووفقت فيه نظري ، فلا أقول بأن القائلين بالقـدم قـد كفروا بمذهبهم هـذا وانكروا ضروريا من الدين القويم وانما أقول : أنهم قـد أخطأوا في نظرهم ••• ومن المعلوم أنه من سلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليد في الاعتقاد ، ولم تجب عصمته • فهو معرض للخطأ • ولكن خطأه عند الله واقع موقع القبول حيث كانت غايته من سعيه ومقصده من تمحيص نظره أن يصل الى الحق ويدرك مستقر اليقين »(٣) •

هـذا يرى المنصفون من العلماء والمفكرين أن قضية قـدم العالم أو حـدوثه من الصعوبة بحيث لا ينبغي أن يتعلق بها كفرا وايمانا وسوف أبدأ في تقرير هـذه القضية عند الشريف الجرجاني والمتكلمين :

ونسأل الله التوفيق ••

---

(١) سورة هـود الآية ٧ •
(٢) سورة ابراهيم آية ٤٨ •
(٣) ابن رشد . فصل المقال ص ٢١ ، ٢٢ •
الامام محمد عبده . حاشيته على شرح العقائد العضدية ص ٦٠ •

بادىء ذى بدء نعرض بصورة موجزة موقف الفلاسفة من هـذه القضية حيث قرر « أرسطو » قـدم العالم تبعا لقـدم علته المستجمعة لكل شرائط الايجاد وهو سبحانه ــ وتعالى ــ واجب الوجود لذاته لذلك يجب أن يوجـد عنه العالم فان تأخر وجود العالم فهـذا يعنى أن لـه حالة منتظرة فلم يكن واجب الوجود ، لأن الوجود الواجب هـو الوجـود الكامل الذى ليست لـه حالة منتظرة يستكمل بهـا شرائط الوجود والعالم فيض من وجوده ، اذن فالعالم وجوده مرتبط بوجود الله ــ سبحانه تعـالى ــ وما دام مرتبطـا بوجوده فهـو قـديم(١) •

ويصور الامام الغزالى مذهب الفلاسفة فى قـدم العالم حيث يقول : اختلف الفلاسفة فى قـدم العالم ، فالذى استقر عليه رأى جماهيرهم المتقـدمين والمتـأخرين ، القـول بقـدمه وانه لم يزل موجودا مع الله تعالى ، ومعلولا لـه ، وما وقاله غير متأخرة عنـه بالزمان مساوقة المعلول للعلة ومساوقة « النور للشمس وان تقـدم البارىء عليه كتقـدم العلة على المعلول وهو تقـديم بالذات والرتبـة » بالزمان »(٢) •

أما جمهور المتكلمين : ومنهم الجرجانى فقـد لاحظوا أن هـذا المبدأ الدخيل يهـدد بعض القضايا الكلامية المقررة والثابتة ووضعوا هـذه الأصول كمدخل للقول بالحـدث وهى :

١ ــ ان القول بالقـدم يفوت الاستدلال على وجود الله بحدوث مصنوعاته هـذا من جهة ومن جهة أخرى يبطل قاعـدة التوحيد الخالص لمـا فيه من تعـدد القـدماء •

٢ ــ القول بقـدم العالم يصطدم مـع قضية البعث التى هى عبارة عن احـداث من عـدم وانتشار بعـد فناء لأن ما ثبت قـدمه استحال عـدمه •

---

(١) أنظر الشهرستانى فى الملل والنحل جـ ٢ ص ١٥٧ ــ ١٦٢ •
(٢) الغزالى تهافت الفلاسفة ص ٨٨ •

ولما كانت هذه الأصول والعقائد ثابته لدى جمهور المتكلمين وكان القول بقدم العالم يهدم هذه العقائد فقد اتفقوا على أن العالم بجميع أجزائه محدث(١) .

الجرجانى وحدوث العالم

ناصر الجرجانى القول بحدوث العالم وذهب الى ان القول بالحدوث وحده لا يكفى بل لابد من مقدمات معينة يتوصل بواسطتها الى الحدوث ومن ثم فهى مرتبطة به ارتباطا وثيقا بحيث يجب على من أثر الحدوث على القدم أن يسلم أولا وقبل كل شىء بهذه المقدمات وأول هذه المقدمات فى نظره اثبات أن العالم حادث من عدم وان الله أنشأه انشاء .... وهذا القول يقتضيه أن يعرض لمعنى « الشيىء » وهل المعدوم شىء أم لا ؟

وبعد محاولة جادة قام بها الجرجانى اتضح لديه أن هنالك فرقا بين المعلوم والشيىء لأن المعلوم يتعلق بالموجود والمعدوم ، وأن الشىء مفهومه الوجود الكائن الثابت ، ولا فرق بين الشيىء والوجود فكل شيىء موجود وكل موجود شيىء »(٢) .

ان الوجود يعنى عند الجرجانى الثبوت . ولا معنى للوجود الا هو الثبوت ، فلو كان المعدوم ثابتا لكان موجودا هذا خلف فحدوى هذا الدليل العقلى الذى جعله مقدمة أولى أنه يرفض بشدة ما عليه المعتزلة من قولهم : ان المعدوم شيىء أى ثابت متقرر فى الخارج منفك عن صفة الوجود(٣) .

ولنا أن نتساءل . كيف استطاع الجرجانى الربط بين الوجود ، وبين الثبوت وعلى أى أساس ذهب الى القول باتحادهما ؟

---

(١) انظر العقائد ص ٥٤ .
(٢) الجرجانى فى شرح المواقف ج ٢ ص ١٩٣ .
(٣) الجرجانى فى شرح المواقف ص ١٩٧ .

يجيب على هـذا التساؤل قائلا : لأن كلا منهما أى الوجـود والثبوت زائد على الذات ومشترك ـ أى الحمل عليها يفيد فائدة .... فلا يجوز أن يتصف المعـدوم بصفة ثبوتية ، بل لابد أن يكون الموصوف بها ثابتا فى نفسه(١) .

ان الجرجانى يؤكد القول بثبوت المعـدوم فى حال العـدم ينفى المقـدورية ، لأن الذوات ثابته أزلية فلا تتعلق بها القـدرة . » واذا لم يكن البارى سبحانه موجـدا للممكنات ولا قـادر على ايجـادها وذلك كفر صريح .

لا يقال تأثير قـدرة الله تعالى انما هـو فى اتصاف الذات بالوجود لأن نقول : ذلك الاتصاف امر عـدمى فلا يكون أثراء للمؤثر . وفيه بحث لأن المراد أن القـدرة انما تجعل الذات متصفة بالوجود لا أنها توجـد الاتصاف والفرق بين ...

الا ترى أن الصباغ يجعل الثوب متصفا بالصـبغ وان لم يكن موجودا لاتصافه به »(٢) .

ونحن من جانبنا نقف بجوار الجرجانى لأن الأزلية تنافى المقدورية لأنها اذا كانت ثابتة فى نفسها فلا تحتاج الى علـة فضلا عن كونهـا مقـدورة . اذن ففعل الفاعل يستلزم بالقـدرة حـدوث مفعولة ، لان العـدم انما يتوجه الى تحصيل ما ليس بحاصل(٣) .

يقول الدكتور القوصي : « الحق لا يستطيع أحـد أن يزعم أن القـديم يصح استناده الى الفاعل المختار فمن أوضح المواضحات ان القـديم ينافى تأثير الفاعل المختار ذ لك أن تأثير الفاعل المختار مسبوق بالقصـد والارادة والقصـد الى ايجاد الشيىء لابد أن يتوجه اليه

---

(١) المرجـع
(٢) الجرجانى فى شرح المواقف جـ ٢ ص ٢٠١ .
(٣) شرح المقاصـد جـ ٢ ص ٨ .

حال عـدمه لأن القصـد الى ايجاد الموجود تحصيل للحاصل وهـو محـال •

فالقصـد حين يتجه الى الشيىء المعدوم بوجوده بعـد ان لم يكن ، فيكون حادثا بعـد العـدم لا محالة •

اذن ففعل الفاعل المختار يستلزم بالضرورة حـدوث مفعوله • يترتب على هـذا أنه حين يقول الفلاسفة بقـدم العالم قـدما زمانيا بمعنى أنه لم يكن مسبوقا بعـدمه المطلق ، فانهم فى نفس اللحظـة لا يستطيعون القول أنه تعالى فاعل لهـذا العالم بالقصد والاختيار بل يقولون أنه موجب بالذات •

وحين يقول المتكلمون أن العالم حادث بعـد أن لم يكـن فانهم يقولون فى اللحظـة ذاتها أنه تعالى فاعـل لهـذا العـالم بالقصد والاختيـار »(١) •

ان قـدرة الخالق ـ عز وجل ـ تتجلى أكثر ظهورا عندما تخلق الشيىء من العـدم المحض والفناء الصرف •

ان القول بالحـدوث بمعنى الخروج من العـدم الصرف هـو مذهب الجرجانى وسائر المتكلمين لأنه يؤسس قاعـدة هامة وأصـيلة من قواعـد الاستدلال على وجود الخالق الأعظم •

أما جمهور المعتزلة فقـد سلكوا مسلك القـدم وان لم يصرحوا به وذلك حينما استعملوا لفظ الشيىء المعلوم ولهـذا هو جموا بشده من قبـل خصومهم • يقول البغدادى « قال المسلمون خلق الله عز وجـل الشيىء لا من شيىء » •

وقالت المعتزلة أنه خلق الشيىء من شيىء فأضمروا قدم الاشياء لقولهم بما يؤدى اليه •• كأنهم اضمروا قدم العالم ولم يجسروا على اظهاره فقـالوا بما يؤدى اليه »(٢) •

(١) د.عبد الفضيل القوصى هوامش على العقيدة النظامية ص ٧١ •
(٢) للبغـدادى أصـول الدين ص ٧١ •

كذلك نجـد صاحب كتاب « قضية التكفير عند الغزالى » يقـرر بصراحة ووضوح أن المعتزلة ــ لمـا قالوا بان المعـدوم شيىء فقـد قالوا بالقـدم على نحو ما قاله الفلاسـفة(١) .

وخلاصة القول : استطاع الجرجانى فى أن يتابع منهج الأشاعرة حينما اعتمد على تفسير ألفـاظ الشيىء .. ، والمعـلوم ، الثبوت ، الوجود ، المعـدوم ، فابتعـد عن القـول بالقـدم وسـلك مسلك الحـدوث .

ويعنينا هنا أن نشير اشارة موجزة عن السبب الـذى أدى الى اختلاف الجرجانى مـع الفلاسـفة نقول :

العالم عند الشريف والمتكلمين حادثا لانه لا قـديم عندهم الا الله لهـذا فسروا الحـدوث بانه الموجود عن عـدم كما فسروا القديم : بانه المتقـدم فى الوجود على غيره هـذا بخلاف الفلاسفة الذين تمسكوا باصول قـديمة ونظريات قامت على الخيال الفلسفى كنظريات العقول والنفوس وغيرهما ــ فانهم فرقوا بين القديم بحسب الذات والقديم بحسب الزمان فالقـديم بحسب الذات هو الله تعالى وأما غيره من الموجودات القـديمة فانهـا قـديمه بحسب الزمان وحادثه بحسب الـذات(٢) .

استدلال الجرجانى على حـدوث العالم

استدل الجرجانى على حـدوث العـالم بحـدوث الجـواهر والأعراض أما كون الأعراض حادثة ، فـدليلها أن الحركة تبطل وتزول عند وجـود السكون وكذلك فان السكون يبطل ويزول عند وجـود الحركة ، وهـذا البطلان والزوال انما هو دليل الحـدوث ولو كانت الحركة أو السكون قـديمة لمـا بطلت وزالت لأن القـديم لا يبطـل

---

(١) د. رفقى زاهر قضية التكفير عند الغزالى ص ١٩ .
(٢) الغزالى تهافت الفلاسفة ص ١١٠ وما بعـدها .

ولا يزول وما ثبت قـدمه أستحال عـدمه وأما الجواهر فانها لا تخلوا عن الاعراض بحال ما فهى ملازمة لهـا باستمرار ولمـا كانت الإعراض حادثة لجواهر أيضا حادثة لأن ما لازم الحادث ولم يسبقه زمنا فى الوجود كان بالضرورة حادث أيضا(١) .

هـذا هو استدلال الجرجانى على حـدوث العالم ثم بدأ يدحض شبه القائلين بالقـدم وأقوى هـذه الشبه عندهم أن فاعلية الفاعل للعالم قـديمة ، ويلزم منه قـدم العالم .

يقول الشريف فى رده على هـذه الشبه : « جميع ما لابد منه فى الايجاد أن كان حاصلا أزلا كان الايجاد حاصلا فية ، اذ لو لم يحصل لكان حصوله بعـده ، أما أن يتوقف على شرط حادث فلا يكون جميع ما لابد عنه حاصلا وهو خلاف المفروض .

أولا - يتوقف فيلزم الترجيح بلا مرجح ، واذا كان الايجـاد أزليا كان وجود الأثر الذى لا يتخلف عنه كذلك .

وان لم يكن جميع ما لابد منه فى الايجاد حاصلا فى الأزل كان بعضه حادثا قطعا فننقل الكلام إليه ونقول :

ان لم يحتج هـذا الحادث الى ايجاد لزم استغناء الحادث عن المؤثر المخصص وان احتاج فأما أن يكون جميع ما لابد منه فى ايجاده حاصلا فى الأزل فيلزم قـدم الحادث ، أولا يكون حاصلا فبعضـه حادث بالضرورة فيـلزم التسلسل فى الأرباب والمسببات وهـو محـال »(٢) .

هـذا هو تقرير العالم الأشعرى لشبهة الخصم والتى تعتبر فى العمدة لدى الخصم فى اثبات مدعاه .

---

(١) الجرجانى فى شرح المواقف جـ ٧ ص ٢٢ .
(٢) الجرجانى فى شرح المواقف جـ ٧ ص ٢٢٩ .

أما رده عليها فقد جاء من وجهين وافق فيها جمهور المتكلمين :

الوجه الأول : « النقض بالحادث اليومى اذ لا شبهه فى وجوده » .

الوجه الثانى : « ان ترجيح الفاعل المختار لاحد مقدوريه على الآخر انما هو مجرد الارادة ولا حاجة فى ذلك الترجيح الى مرجح ينضم اليه » .

أما الوجه الأول . وكيفية الاحتجاج بالحادث اليومى فيذكر الجرجانى أن هذا الحادث اليومى تشبهه فى وجوده فنقول : ما عليه الفاعل القديم لهذا الحادث قديمه اذ لو كانت حادثة لتوقفت على شرط حادث متعا من الترجيح بلا مرجح .

والكلام فى هذا الشرط الحادث كما فى الأول فتسلسل الحوادث المترتبة الى مالا نهاية له ، فلو صح دليلكم لكان الحادث اليومى قديما(١) .

أما عن الوجه الثانى وكيفية الاحتجاج به على ابطال شبهة الخصم فيقول الجرجانى : « الفاعلية حادثة بمجرد الارادة المتعلقة بالمقدرة ، ويعمق الاحتجاج بما يدفع الشبه عنه فيقول :

وقد يقال هذه الارادة المستلزمة لوجود المقدور ان كانت قديمة لزوم قدم المقدور ، وان كانت حادثة احتاجت الى ارادة أخرى أو شيىء آخر حادث فيلزم التسلسل ، ويجاب أما بجواز ترتب الارادات أو ترتيب تعلقات ارادة واحدة قديمة الى ما لا يناهى وأما بجواز حدوث تعلقها فى وقت معين بلا سبب مخصص لكون التعليق امرا اعتباريا فعليك بالتدبر فى أمثال هذه المقاومات(٢) .

واذا كان الشريف الجرجانى قد استدل على حدوث العالم بحدوث الجواهر والأعراض فقد رأينا واجبا علينا أن نوضح بايجاز معنى الجوهر والعرض عند الشريف الجرجانى .

---

(١) الجرجانى فى شرح المواقف جـ ٧ ص ٢٢٩ .
(٢) الجرجانى فى شرح المواقف جـ ٧ ص ٢٣٠ .

الجـــوهـــر

عرف صاحب كتاب التعريفات الجوهر : « بأنه ماهية اذا وجــدت فى الأعيان كانت لا فى موضـوع »(١) .

والجوهر عند المتكلمين هــو : « الجوهر المتميز الذى لا ينقسم أما المنقسم فيسمونه جسما لا جوهرا ولهــذا السبب يمتنعون عن اطلاق اسم الجوهر على المبدأ الأول »(٢) .

ويطلق الجوهر عند الفلاسفة على معان : منها الموجود القــائم لنفسه حادثا كان أو قــديما ويقابله العرض ومنها الذات القابلة لتوارد الصفات المتضادة عليها ومنها المــاهية التى اذا وجــدت فى الأعيان كانت لا فى موضـوع ومنها الموجود الغنى عن محل يحل فيه »(٣) .

أما عن أقسام الجوهر فيقول الجرجانى :

« هــو منحصر فى خمسة : هيولى وصـورة وجسم ونفس وعقل ويوضح وجــه انقسامه فى الخمسة المذكورة حيث يقول :

« لأنه أما ان يكون مجردا أو غير مجرد ، فالأول اما ان يتعلق تعلق التدبر والتصرف أو لا يتعلق .

والأول : العقـــل .

والثانى : النفس .

والثانى : عن الترديد : وهو أن يكون غير مجرد .

وأما أن يكون مركبا أولا ، والأول الجسم ، والثانى اما حال أو محل . الأول الصورة والثانى الهيولى »(٤) .

---

(١) الجرجانى : التعريفــات ص ٧٠ .
(٢) د. جميل صليبا ـــ المعجم الفلسفى ج ١ ص ٤٢٧ .
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٤) الجرجانى التعريفات ص ٧٠ .

المتأمل من تعريف الجوهر وتقسيمه عند الجرجانى يلمح مخالفته لجمهور المتكلمين • وموافقته للفلاسفة ، فالفلاسفة يتجهون فى تعريف الجوهر هـذا الاتجاه ، لأن الجوهر فى نظرهم هـو الممكن الذى يستغنى فى وجوده عن الموضوع أى المحل •

يقول ابن سينا : « الجوهر الذى هـو محل المعقولات ليس بجسم ولا قائم بجسم »(١) •

هـذا بخلاف المتكلمين الذين لا يعترفون بالجواهر المجردة فى المـادة وعرفوا الجوهر بالتميز وقالوا لا جوهر - المتميز ـ أى القابل للاشارة الحسية وينبغى أن نشير الى ملاحظه هامة أن كلام الجرجانى فى التعريفات لا يمثل مذهبه الكلامى وانما هـو تعبير عن رؤية الفلاسفة ومذهبهم حيث يقول : « فهـذه تعريفات جمعتها واصطلاحات أخـذتها من كتب القـوم(٢) •

أنه فى هـذه الجزئية مجرد ناقل لمذهب الفلاسفة معبر عن رأيهم فقط والناظر فى كتاب شرح المواقف وهـو الذى ضمنه آراءه الكلامية يجـده معتنقا لوجه نظر المتكلمين معتقدا لهـا فقـد فصل بين تعريف الفلاسفة للجوهر وتعريف المتكلمين ثم عبر عن رأيه ووجهة نظره فى اختيار مذهب المتكلمين •

يقول الجرجانى : فى تعريفه للجوهر : « أنه ممكن موجود لا فى موضوع عند الحكماء وحادث متميز بالذات عند المتكلمين انه عند الحكيم ماهية اذا وجـدت فى الأعيان كانت لا فى موضوع ، وعنـد المتكلم موجـود متميز بالذات »(٣) •

---

(١) ابن سينا النجـاة ص ١٢٦ •

(٢) الجرجانى التعريفات ص ٢ •

(٣) شرح المواقف جـ ٦ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ •

أقسام الجـوهر عند الجرجانى

لقـد رفض الجرجانى بشدة التقسيم الذى قال به الفلاسـفة وقرر أن هـذا التقسيم الذى ذهبوا اليه مبنى على نفى الجوهر الفرد ، لأنهم لو أثبتوا الجوهر الفرد ما قالوا بهـذا التقسيم اذ على تقـدير ثبوته لا صورة ولا هيولى ولا ما يتركب منهما ، بل هناك جسم مركب من جـواهر فردة([1]) .

أنه لا يقول بالجواهر المجردة عن المـادة ولا جوهر عنده الا المتميز القابل للاشارة الحسية ومن ثم فهو يقسم الجوهر الى قسمين : الجسم والجوهر الفرد لأنه أما أن يقبل المتميز القسمة فهـو الأول اولا يقبلها فهـو الثانى .

يقول الجرجانى : « الجوهر منحصر فى هـذين القسمين الجوهر الفرد هو العنصر الأول فى تكوين الأجسام وان الجسم ينتهى بالتجزئة الى جزء لا يتجزأ وهـو ما يسمى بالجوهر الفرد »([2]) .

العرض عند الجرجانى

ذهب الجرجانى فى تعريفه للعرض بأنه : « تارة يعرض فى الجوهر مثل الألوان والطعوم والذوق واللمس وغيرها ممـا يستحيل بقاؤه بعـد وجـوده »([3]) .

وتارة يعرفه بأنه : « المجود الذى يحتاج فى وجوده الى موضع والملاحظه ان الجرجانى بعـد سرده لعيدة تعريفات للعرض آختـار تعريفا آخر ارتضاه ونص على أنه المختار عنده وهـو أنه ـ أى العرض ـ موجود قائم بمتحيز »([4]) .

(1) المصـدر السابق ص ٢٧٦ .
(2) شرح المواقف ج ٧ ص ٥ ـ ٩ وانظر الفصل . لابن حزم ج ٥ ص ٩٢ .
(3) الجرجانى التعريفات ص ١٣٠ .
(4) شرح المواقف ج ٦ ص ٦ .

وهـذا التعريف الذى ارتضـاه الجرجانى هـو نفس التعريف عند جمهور الاشاعرة(١) •

ويرى أن له مميزات ليست فى غيره •

يقول الجرجانى : « هـذا هو المختار فى تعريفه ، لأنه خرج منه الأعـدام والسلوب اذ ليست موجودة والجواهر اذ هى غير قائمـة متحيز وخرج ايضا ذات الرب وصفاته »(٢) •

أقســام العــرض

يرى الجرجانى أن العرض ينقسم الى قسمين :

القسم الأول : عرض يختص بالحى وهـو الحياء وما يتبعها من الادراكات بالحواس ومن غيرها كالعلم والقـدرة والأرادة والكراهة والشهوة والنفرة وسائر ما يتبع الحياء •

القسم الثانى : عرض لا يختص بالحى وهـو الألوان المنحصرة فى الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والمسموسات باحـدى الحـواس الخمس(٣) •

أحـكام العــرض

يرى الجرجانى أن للعرض أحكام كثيرة منها : أنه لا يقوم بنفسه ، لأننا حين ندرك الأعراض نرى أنه لا يجوز قيامها بنفسها •

يقول الجرجانى : « فاننا ندرك الأعراض من الألوان والاضواء والأصوات والطعوم والروائح والحرارة والبرودة وغيرها بحواسنا ولا نشك فى أنها لا يجوز قيامها بنفسها »(٤) •

---

(١) د. جميل صليبا . المعجم الفلسفى انظر تعريف العرض بالتفصيل •
(٢) شرح المواقف ج ٦ ص ٦ •
(٣) امام الحرمين ــ الشامل ص ١٨٩ وما بعـدها •
(٤) شرح المواقف ج ٥ ص ٧٧ •

وقـد خالف أبى الهـذيل العلاف الجرجانى فى تعريفه للعرض وعـدم قيامه بنفسه وزعم أنه يجوز ارادة عرضية •

تحـدث لا فى محل وجعل البارى تعالى مريداً بها • « الضرورة قاضية بأن العرض لا يقوم بنفسه ، وتجويز أبى الهـذيل العـلاف بارادة عرضية لا فى محل مكابرة وبانه لا يقوم بأكثر من محل »(١) •

وقـد رفض الجرجانى هـذا القـول واعتبره مكابرة يقـول الجرجانى : « ودعوى كون الارادة قائمة بنفسها وكون البارى مريدا بها مـع استواء نسبتها اليه والى غيره مكابرة صريحة »(٢) •

الحكم الثانى من أحكام العرض •

أنه لا ينتقل من محل الى محل آخر على قياس انتقال الجسم من مكان الى آخر وهـذا الحكم فى نظر الجرجانى قـد اتفق العقلاء على صحته لأن الانتقال هـو حصول الشيء فى حيز بعـد أن كان فى حيز آخـر وهـذا المعنى لا يتحقق الا فى المتحيز والعرض ليس متحيز »(٣)•

حقا أن كل عرض غير متميز بالذات ضرورة أن التميز من خواص الجوهر ولا شيء من غير المتميز بالذات بمنتقل ضرورة أن •

الحكم الثالث من أحكام العرض •

أنه لا يجوز قيام العرض بالعرض لأن قيام الصفة بالموصـوف معناه تميز الصفة طبقا لتميز الموصوف وهـذا لا يتصور الا فى المتميز بالذات وقـد خالف ذلك الحكم الفلاسفة فذهبوا الى جواز قيـام العرض بالعرض •

---

(١) التفتازانى شرح المقاصـد جـ ٢ ص ١٥٩ •
(٢) الجرجانى فى شرح المواقف جـ ٥ ص ٢٧ •
(٣) الجرجانى شرح المواقف جـ ٥ ص ٢٨ وانظر مطالع الأنظـار ص ٧٢ — ٧٣ •

احتج الفلاسفة على دعــواهم :

بأن السرعة والبطء عرضان قائمان بالحركة القائمة بالجسم فانها ــ أى الحركة ــ توصف بهما فيقال حركة سريعة وحركة بطيئة ويجعلون الأعراض على نوعين :

قار الذات وهــو الذى تجتمع أجزاؤه فى الوجــود كالبيــاض والســواد وغيره ، وغير قار الذات وهــو الذى لا يجتمــع أجزاؤه فى الوجود كالحركة والسكون »(١) .

وقــد أجاب المتكلمون على هــذا الاحتجاج :

فذهبــوا الى أن السرعة والبطء ليسا عرضــين ثابتين للحركة قائمين بها ، بل الحركة أمر ممتد يتخلله سكنات .

أقل وأكثر باعتبارها تسمى سريعة أو بطيئة(٢) .

يقول الجرجاني فى دفع شبهة الفلاسفة : « فحاصل البطء أن الجسم يسكن سكنات كثيرة فى زمان قطعة المسافة وحاصل السرعة أنه يسكن سكنات قليلة بالقياس الى سكنات البطء .

ولا شك أنهما بهــذين المعنيين من صــفات الجسم المتحرك دون الحــركة »(٣) .

فليس هناك ــ اذن ــ عرض يقوم بعرض ، وانما عرض يقوم بجــوهر أى بتميز بالذات .

الحكم الرابع من أحكام العرض

ان الأعراض لا تبقى زمانين :

ان جميع الأعراض على النقض والتجــدد وينقضى واحــد منها

---

(١) د. جميل صليبا . المعجم الفلسفى ج ٢ ص ٧٠ .
(٢) انظر حاشية السيالكوتى ج ٥ ص ٣٦ .
(٣) الجرجانى شرح المواقف ج ٥ ص ٣٦ .

ويتجـدد آخر منها مثله ، وبقائه عبارة عن تجـدد الأمثال بارادة الله تعـالى .

الخـاتمـة

وخلاصة القول أن الشريف الجرجانى قـد سلك طريق الحـدوث ورتبه على أصول وقواعـد هى :

الاصل الاول : أثبت براعة أن الاعراض زائدة على الجواهر سواء كانت أعراضا محسوسة أو جواهر .

الأصل الثانى : أثبت حـدوث الأعراض وبنى هـذا الاصل على أسس أربعة هى : استحالة قيام الأعراض بنفسها واستحالة انتقالها واستحالة كونها واستحالة عـدم القـديم .

الأصل الثالث : استحالة خلو الجواهر عن الأعراض .

الأصل الرابع : استحالة حوادث لا أول لهـا .

يثبت اذن أن الجواهر لا تسبق الأعراض الحادثة وما لا يسبق الحادث فهـو حادث .

أن قضية قـدم العالم أو حـدوثه أكثر المنكرون القول فيهـا وأشعلت نار الخصومة بينهم واستنفذت طاقاتهم وقـد لعب التعصب دوره الخطير بينهم ذلك التعصب الذى دفع كل من الفريقين الى تلمس الأدلة والبحث عن البراهين كى يثبت مدعاه بل تعـدى الأمر الى رمى كل منهما الآخر بالكفر وأننى فى الحقيقة وأحقاقا للحق لا أميل الى وصفهم بالكفر كما فعل الامام الغزالى لأن الفلاسفة حين يقولون بالقـدم فهم يقصدون بذلك القـدم الزمانى لا القـدم الذاتى لأن الزمان عندهم انمـا هـو عبارة عن حركات الأفلاك ولا شك أن الزمان لا وجود لـه قبل وجـود الفلك .

ومن ثم فالعالم عندهم حادث حـدوثا ذاتيـا وان كان قـديما بالـذات .

لقد أقر الفلاسفة صراحة بالفرق الهائل بين الله والعالم • فالله سبحانه وتعالى لم يستفد وجوده السرمدي من غيره بل وجوده من ذاته ويصفونه بسائر صفات الشرف والكمال والتنزيه المطلق حيث لا يطرأ عليه تغيير ولا تجدد في ذاته حال هذا بخلاف الهيولى التي هي محل قابل لتأثيره الدائم الذي ينشىء عنه تعاقب الصور المختلفة •

أن الفريق الذي اختار التوقف في هذه القضية كان على حق وذلك لتشعب الأدلة وتعارضها بصورة تجعل الوصول الى الحق فيها من الصعوبة بمكان •

والآن بعد أن اتضحت لنا الصورة العامة لمنهج الشريف الجرجاني قضية العالم الطبيعي آن لنا أن نعرض آرائه حول اثبات وجود الصانع وكان لابد من تقديم الجانب الطبيعي على الجانب الآلهي لأن البحث في الجانب الطبيعي الذي يقرر فيه المتكلمون حدوث العالم وحاجته الى محدث يعتبر وسيلة لمعرفة الجانب الآلهي واثبات وجود الخالق المبدع ومن البديهي أن الوسائل تقدم على الغايات •

أدلة الجرجاني على اثبات وجود الصانع

باديء ذي بدء نلقي الضوء على مذهب المتكلمين في هذه القضية وذلك قبل عرض طريقة الجرجاني في الاستدلال على وجود الخالق المبدع •

وقد استدل المتكلمون على اثبات وجود الباري سبحانه وتعالى بأربعة وجوه :

الوجه الأول :

استدلوا على وجود الله تعالى بحدوث الجواهر وهو أن العالم الجوهري أي المتميز بالذات حادث وكل حادث فله محدث كما تشهد به بدهية العقل ويقول صاحب المواقف : « وقد يستدل على اثبات الصانع بكل واحد منهما ـ أي الجواهر والأعراض ـ اما بامكانه أو بحدوثه ، بناء على أن علة الحاجة عندهم اما الحدوث وحده أو

الامكان مع الحدوث شرطا أو شطرا والاستدلال بحدوث الجواهر يقبل هذا طريقة الخليل صلوات الرحمن وسلامه عليه حيث قال : لا أحب الآفلين » وهو أن العالم الجوهري أي المتميز بالذات حادث وكل حادث فله محدث كما شهدته بدكهة العقل فان من رأى بناء رفيعا حادثا جزم بأن له بانيا »[1] .

الوجـه الثانى :

الاستدلال بامكان الجواهر بناء على أن العالم الجوهري ممكن لأنه مركب من الجواهر الفردة ، وهو الجزء الذى ينتهى اليه الجسم بالتجزوء والانقسام ولا يقبل القسمة والواجب لا تركيب فيه ولا كثرة ، بل هو واحد حقيقى وكل ممكن فله علة مؤثرة .

يقول الايجى : « الاستدلال بامكانها ، وهو أن العالم الجوهرى ممكن لانه مركب من الجواهر الفردة أن كان جسما وكثران كان جسما أو جوهرا فردا والواجب لا تركيب فيه بل هو واحد حقيقى وكل ممكن فله علة مؤثرة »[2] .

الوجـه الثالث :

استدل المتكلمون بحدوث الأعراض أما في الأنفس مثل ما نشاهد من انقلاب النطفة علقة ثم مضغة ثم لحما ودما قال تعالى : **« ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »**[3] .

يقول الايجى : « الاستدلال بحدوث الأعراض ما فى الأنفس مثل ما نشاهده من انقلاب النطفة علقة ثم مضغة ثم لحما ود ما اذ لابد لهذه الأحوال الطارئة على النطفة من مؤثر صانع حكيم .

---

(١) الايجى . المواقف جـ ٨ ص ٢ ـ ٣ .
(٢) الايجى . المواقف جـ ٨ ص ٤ .
(٣) المؤمنون الآية ١٤ .

لأن حـدوث الأطوار لا من فاعل محال وكذا صـدورها عن مؤثر لا شعور لـه لأنها أفعال عجز العقلاء عن ادراك الحكم المودعة فيهـا وأما فى الآفاق كما تشاهد من أحوال الأفلاك والعناصر والحيـوان والنبات والمعـادن »(١) .

الوجـه الرابع :

ذهب المتكلمون من الاستدلال بهـذا الوجـه الى أن الأعراض ممكنة اذا قيست الى منحا لهـا وهو أن الاجسام متماثلة متفقة الحقيقة لتركبها من الجواهر المتاجنسة ... فاختصاص كل من الأجسام بما له من الصفات جائز فلابد من التخصيص من مخصص »(٢) .

وبعـد أن أثبت المتكلمون هـذه الوجوه الاربع قالوا :

« مدبر العالم أن كان واجب الوجود فهو المطلوب وان كان ممكنـا فله مؤثر ويعود الكلام فيه ويلزم أما الدور والتسلسل واما الانتهـاء الى مؤثر واجب الوجود لذاته والأول بقسميه باطل ... فتعينى الثانى وهـو المطلوب »(٣) .

وقـد رأى الجرجانى أن هـذا المسلك سلكه المتكلمون يحتاج الى مقـدمات قـد يستغنى عنها من سلك طريقـا آخر أقرب الى التحقيـق .

يقول الشريف الجرجانى : « ولا يذهب عليك أن ما ذكره ــ يقصد ــ صاحب المواقف ــ فى عرضه لهـذا المسلك تطويل ورجوع بالآخرة الى اعتبار الامكان والاستدلال به »(٤) .

ثم سلك الجرجانى سلكا آخر تبدوا فيه المخالفة لسلك الايجى معلنا خروجه عليه فى قضية اثبات الصانع وسوف نلقى الضوء على مسلك

---

(١) الأيجى ـ المواقف جـ ٨ ص ٤ .
(٢) المصـدر السابق جـ ٨ ص ٤ .
(٣) المصـدر السابق ص ٥ .
(٤) الجرجانى شرح المواقف جـ ٨ ص ٥ .

العضد فى أثبات الصانع حيث قد حدد العضد المسلك الذى اختاره وجمعه فى قوله :

المسلك الرابع : « وهو ما وفقنا لاستخراجه : أن الموجودات لو كانت بأسرها ممكنه ــ أى لو لم يوجد الواجب وانحصرت الموجودات فى الممكن ــ لاحتاج الكل الى موجد مستقل يكون ارتفاع الكل مرة بلا يوجد الكل ولا واحد من أجزائه أصلا ممتنعا بالنظر الى وجوده اذ كما لا يمنع أنحاء العدم لا يكون موجبا للوجود »(١) ٠

والذى اذا فرض عدم جميع الأجزاء كان ممكنا نظرا الى وجوده يكون خارجا عن المجموع فيكون له واجبا لانحصار الموجود فيهما اى الممكن والواجب وهو المطلوب ٠

أن هذا المسلك يختلف عن مسلك المتكلمين حيث لا يفتقر الى ابطال الدر والتسلل ، فأن حاصله أن عمله الجميع يجب أن يكون خارجا عنه والخارج عن جميع الممكنات واجب مع ملاحظة أنه لا يتوقف على كون ذلك الجميع متناهيا غير مشتمل على الدور : هذا بخلاف ما ذهب اليه المتكلمين فانه لا بد فيه من أبطال الدور والتسلسل كمقدمة لاثبات الواجب هذا بالاضافة الى أن هذا المسلك الذى مسلكه العقد طرحا لمشكلات كثيرة كانت فى مسلك المتكلمين من بيان حدوث العالم وبيان امكانه ٠

اثبات وجود الله عند الجرجانى

يقول الجرجانى : المسلك السادس : ما اشار اليه بعض الفضلاء ــ يقصد بعض العقلاء صاحب اللباب(٢) وتحريره أن الممكن لا يستقل بنفسه فى وجوده ، وهو ظاهر ولا فى ايجاده لغيره لان مرتبة الايجاده بعد مرتبة الوجود فأن الشىء ما لم يوجد لم يوجد ، فلو انحصر

---

(١) الايجى ، شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٦٨ ٠

(٢) فقد صرح بهذا فى شرح المواقفة جـ ٨ ص ١٣٦ ٠

الوجود في الممكن لزم ألا يوجد شيء أصلا ، لأن الممكن وأن كان متعددا لا يستقل بوجود ولا ايجاده واذا لا وجود ولا ايجاد فلا موجود لا بذاته ولا بغيره»(1) •

هذا هو الطريق الذى اختاره الجرجانى وارتضاه لنفسه واعتبره من أخطر المسالك وأظهرها حيث يقول عقب تحريره لهذا المسلك وهذا (المسلك) أخطر المسالك وأظهرها وفيما يبدوا الى أن هذا القول يحتاج الى شيء من التأمل حيث قد توقف على اثبات أمور لا تقل صعوبة عن تلك التى ينطوى عليها مسلك الحدوث عند غيره وبالتأمل نرى أن قوله : احتياج الممكن الى المؤثر وانه لا يستقل بوجود •

ولا ايجاد • هذا من ناحية ومن ناحية أخرى توهم الجرجانى الى أن هذا المسلك لا يفتقر الى ابطال التسلسل لأنه من الممكن أن يقال أن الممكن — وأن لم يستحق الوجود بالنظر الى نفسه وذاته فقد يستحق نظرا الى علته الممكنة وحينئذ نقول : يجوز أن يعلل كل من الممكنات بعلة ممكنة لا الى نهاية فيستحق الممكن الوجود والايجاد بالنظر اليها لا بالنظر الى نفسه ، وفضلا عن هذا فان هذا المسلك يحتاج الى نوع قدمى »(2) •

أن الطريق الذى سلكه المتكلمين فى اثبات الصانع لا يختلف فى جوهره عن القرآن الكريم حينما استدل خليل الرحمن على وجود الله بحدوث الجواهر فى قوله تعالى : **« لا أحب الآفلين »** فقد أثبت الخليل أن هذه الجواهر المتغيرة غير صالحة للالوهية لأن صانع العالم غير متغير ولا حادث وكذلك فعل الجرجانى الذى حرص من جانبه على ابراز الصلة الوثيقة التى تربط بين دليل امكان الأعراض ومنهج القرآن الكريم حيث يقول القران الكريم على لسان موسى عليه السلام : **« ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »**(3) •

(1) الجرجانى شرح المواقف جـ ٨ ص ١١ •
(2) انظر ابن سينا النجاة ص ١٣٧ •
(3) سورة طـه الآية ٥٠ •

يدل هـذا القول الكريم على أن الذى منحه صـورته الخاصـة وشكله المعين هـو مبدع الكائنات .

يقول صاحب المواقف : « أى أعطى صورته الخاصة وشكله المعين المطابقين للحكمة والمنفعة المنوط به »(١) هـذا بالاضافة الى دليل الحدوث لا يختلف فى جوهره عن دليل الخلق والاختراع يقول الدكتور محمد يوسـف » :

وليس من اليسير حصر الآيات القرآنية التى تدل على الله وحـده هـو الذى خلق العالم سماءه وأرضه والذى خلق الانسان وسائر ما على ظهر الأرض وما فى بطنها من حيوان ونبات وجماد وأنه خلق هذا وذاك كله من عـدم وجعله نظام بديع محكم ليكون فيـه مجال للعقل والفكر يصل منه الى أنه صنع اله واحـد لا رب غيره ولتكون الحياة الانسانية ممهـدة وميسرة للانسان »(٢) .

أن استدلالات المتكلمين وبحوثهم فى اثبات الصانع لم تخرج عن منهج القرآن الكريم ولم تختلف عنها الا بالقـدر الذى يناسـب أسـلوب الخصم .

---

(١) الايجى . المواقف جـ ٨ ص ٤ .
(٢) د.محمد يوسف ــ القرآن والفلسفة ص ٢٥ .